رسائل شهاب الدين محمود الحلبي (ت:٧٢٥هـ)
اتجاهاتها الموضوعية وسماتها الفنية

م.م. عبد الهادي عبد الرحمن الشاوي
مركز دراسات الكوفة /جامعة الكوفة

الخلاصة:

يعد شهاب الدين الحلبي (٧٢٥هـ) من ابرز كتَّاب عصره ،فقد كان كاتبا للإنشاء في ديوان الرسائل عند الحكام المماليك ،وهذا ما جعله ذا مقدرة أدبية بزت أقرانه من الكتاب،عندما استثمر هذه الموهبة في صياغة رسائله وكتبه التي تنوعت ،فهي رسائل ديوانية وأخرى أخوانية وثالثة كتب التقليدات والتواقيع ،وهذه الرسائل جميعها ذات سمات فنية تمحورت حول ثلاثة محاور هي :سلطة النص القرآني التي بدت واضحة في الألفاظ والتراكيب والمعاني ، و سلطة النص التراثي ،المتمثلة قي تأثير الشعر وفي وضوح تأثير الأساليب الأدبية التي كانت شائعة في عصره والتي سار عليها الكتاب قبله فقد بدا لنا أن شهاب الدين الحلبي قد سار على وفق ما كان عليه كتاب الرسائل الذين سبقوه ، فيما وجد البحث أن هنالك سمة أخرى اتصفت بها رسائله،وهي شيوع المحسنات البديعية فيها التي كانت من سمات عصره ،وقد أكثر الكتاب منها في رسائلهم ، وقد حاول البحث إبانة هذه السمات وتحديد أماكن تأثيرها في النص الأدبي الذي حرره الكاتب ، وألاشارة إلى جمالية هذه السمات ، وقد ختم البحث بخاتمة أوضحت النتائج التي توصل إليها البحث.

رسائل شهاب الدين محمود الحلبي (ت: ٧٢٥ هـ)
اتجاهاتها الموضوعية

توطئة : لم يكن العرب امة شاعرة فحسب، مثلما يصفها الواصفون ، بل كانت امة منحت سفر الأدب الخالد تراثا هائلاً وابداعا ادبيا في مجال النثر أيضا ، تناقلته حفظة العرب إذ كان بين خطب ومنافرات وامثال وحكم ، حتى إذا ما جاء عصر التدوين وانصرف العرب إلى الشعر فدونوه برغم ما ضاع منه فأنهم عندما جاءوا ليدونوا النثر لم يجدوا منه إلا النزر القليل ، فضاع بذلك تراث هائل ، وغابت عنا ثروة ثقافية ، فيها من ايام العرب وتراثهم وتاريخهم مايسعفنا في كثير من امور ظلت غامضة ، او انها تحتاج الى توسعة وإنارة ، ولقد ظلت في غياهب النسيان. الذي سلب من النثر حصة وافرة ولم يبق منه الا ما علق في أذهان الرواة وما رسخ بعد ذلك في متناثر الكتابات الأدبية وماجاء في كتب التاريخ والسير ، لكن بعد تلك المرحلة التاريخية المهمة، وجدنا لنا نثرا يتسع ويتطور إلى خطب ورسائل وحوارات وكتب وتواقيع ازدهر مع ازدهار الحضارة الإسلامية ، حتى رافقها يحمل همومها وينقل صورتها عبر الكلمة الموجهة والأمر المصاغ في كتاب من حاكم او فقيه او اديب او فيلسوف فكل هؤلاء كان لهم أثر في تطور النثر ولقد ظل الجهد الكبير على عاتق الأدباء وممن اتخذ صنعة الرسائل مهنة ، او ممن استهوته سعة هذا الفن وكونه قادرا على حمل الفكرة افضل من غيره من صفوف الأدب ، فانتجوا لنا ثروة فنية غنية وكانت الرسائل تشكل ركنا مهما وتقدم لونا رائعا يشهد بالمقدرة والمهارة لصانعيه ومنتجيه ،ومن هذا السفر من النثر العربي – سفر الرسائل ،إذ اختار البحث أن يسبر رسائل ادبية امتلكت سمات فنية رائعة ألا وهي رسائل شهاب الدين الحلبي (ت ٧٢٥ هـ) ففيها ما سيعمد الباحث والبحث ان يبينه ويجليه في محاولة لكشف سماته. .

نبذة عن حياته وعصره :

حياته:

ولد شهاب الدين محمود الحلبي ((في شعبان سنة ٦٤٤وسمع من الرضي ابن البرهان ويحيى بن عبد الرحمن الحنبلي.....وكتب الإنشاء أولا بشق ثم نقله ابن السلعوس[١] إلى الديار المصرية ،عقب موت محيي الدين بن عبد الظاهر ،فكتب بها في ديوان الإنشاء ، ثم ولي كتابة السر بدمشق بعد موت شرف الدين ابن فضل الله إلى أن مات وكان نائب السلطنة يحترمه وكان محبا لأهل الخير مواظبا على التلاوة والأدعية والنوافل،وقورا ساكنا...نثره يدخل في ثلاثين مجلدة كذا قال ألصفدي))[٢]فيما ذكر ابن كثير في كتاب البداية والنهاية ترجمة له فقال((هو شهاب الدين ابو الثناء محمود بن سلمان بن فهر الحلبي الدمشقي ، ولد سنة اربع واربعين وستمائة بحلب وسمع الحديث وعني باللغة والأدب والشعر ، وكان كثير الفضائل عارفا في علم الإنشاء نظما ونثرا وله في ذلك كتب ومصنفات ، وقد مكث في ديوان الإنشاء نحوا من خمسين سنة ثم ولي كتابة السر بدمشق نحوا من ثماني سنين الى ان توفي ليلة السبت الثاني العشرين من شعبان في منزله قرب النطفانيين وهي دار القاضي الفاضل وصلى عليه بالجامع ودفن بدار له انشأها بالقرب من اليغوريه وقد جاوز الثمانين رحمه الله)) [٣]

وقد ذكر محقق كتاب حسن التوسل في صناعة الترسل للحلبي (ان بعض المؤرخين قد ذكروا ان مولده كان بدمشق الا انني رجحت رواية ذيل طبقات الحنابلة التي تقول ان مولده بحلب واليها نسب))[٤]

فيما يقول صاحب كتاب فوات الوفيات ان شهاب الدين الحلبي (مكث في ديوان الإنشاء نحو خمسين سنة ثم ولي كتابة السر بدمشق نحو من ثماني سنين وتوفي في سنة ٧٢٥هـ) [٥] ويذكر أن شهاب الدين الحلبي ((كان له والد شيخ، فلا بد من أن يحفظ القرآن والحديث النبوي الشريف والخطب والحكم والأمثال وكل ما تمثل فيه ثقافه الشيخ يوم ذاك))[٦] وعندما شب درس على شيوخ عصر ه من العلماء والأدباء والفقهاء (اذ تفقّه على يد ابي النجا وغيره وتأدب بابن مالك ولازم مجد الدين بن الظهير وحذا حذوه وسلك طريقه في النظم والكتابة))[٧]

وبهذه النشأة والتأديب يكون أديبا وصاحب ديوان الإنشاء قد أكمل العدة وتجهز لخوض غمار فن الكتابة والإنشاء ، مما جعله يترقى في مناصب الدولة ويسمو كثيرا في هذا الفن الذي ترك منه شيئا وافرا، فتنوعت رسائله وانتشرت في بقاع الأرض حروفه وهو يطرزها بخطه ويصوغها بمهارة فنان لكي يقدم النصح مرة والإرشاد أخرى ، أو نشر أوامر السلطان وتقليداته وتواقيعه ، وقد تحمل أوجاع النفس مرة أخرى وتبحث في مكامن الروح فهي تصدر عن اديب استطاع ان يحتل لنفسه منزلة مرموقة في سفر النثر العربي الخالد

عصره :

عاش شهاب الدين الحلبي في القرنين السابع والثامن الهجريين،فلقد شهد القرن السابع الهجري احداثا تاريخية عظيمة ، غيرت وجه التاريخ الأسلامي وظلت راسخة في مخيلة ابناء الأمة العربية والأسلامية ، فبعد الضعف الذي الم بالدولة العباسية، فنخرها وفكك عرى وحدتها ، حتى تفتت إلى دويلات وإمارات تمتد على مساحة واسعة من الصين شرقا حتى بلاد الأفرنج غربا ، وكان لهذا الأتساع الواهن وهذا النظام الشكلي الذي كان يلف أجزاء هذه الأمة الذي اثر في صورة الخلافة العباسية في بغداد إذ لا تملك السلطة ولا تمتلك الا قليلا من الخراج الذي تجود به أيادي حكام وأمراء هذه الدويلات المتناثرة المتعادية في احيان كثيرة ، فحكامها جلهم من الأعاجم ، لم يصمدوا امام زحف قوة هائلة جاءت من الشرق ، وهي مزهوة بانتصارات هائلة ، فلم يقف في وجهها اي والٍ أو حاكم من هؤلاء فسقطت دويلاتهم تباعا حتى استطاع هولاكو قائد المغول البارز أن يحتل بغداد سنة

(٦٥٦هـ – ١٢٥٨م) فلقد ((ساءت الأوضاع الاجتماعية بعد سقوط بغداد ،إذ استولى الغرباء على خيرات البلاد،وقضوا على موارد الثروة ،وتركوا السكان الأصليين في بؤس وشقاء،وكثر الدجالون الأشرار والمفسدون لاسيما الذين كانوا يسمون أنفسهم ب"الشطار"فقد عاثوا في البلاد فسادا وابتزوا أموال الناس ظلما وعدوانا))[٨] كل ذلك كان له أثرٌ واضحٌ في حياة الأمة العربية والأسلامية ولقد كان لهذا الحدث الجلل دوي قوي في نفوس ابناء الأمة الأسلامية وفي العالم ، ثم ان المغول لم يكتفوا باحتلال بغداد بل تقدم هولاكو نحو بلاد الشام وقد تمكن من احتلال حلب بعد حصارها وبعد ان اعطاها الأمان ثم نكث بوعده فدمرها ، وفي مثل هذه الظروف العصيبة التي عانت منها الأمة العربية الإسلامية ، كانت في ناحية أخرى من البلاد العربية الإسلامية قوة تنمو وتزدهر ، شكلت حلما يلم شتات ماتبعثر ويحاول ردم هذه المأساة واستعادة الكرامة ، او على الأقل الوقوف بوجه هذا الغزو ، فكانت قوة المماليك الناشئة في مصر وهي القوة التي غيرت كثيرا مما عانت منه البلاد فمن هم هؤلاء المماليك :

يحدثنا التاريخ (ان اول من استخدم المماليك في شؤون الدولة هو الخليفة العباسي المعتصم بالله استخدمهم في حروبه وسرعان ما انتقل اليهم تصريف امور الدولة فأصبحوا الحاكمين اذ كان الخليفة يحكم حكما اسميا ، كما ان القائد صلاح الدين الأيوبي ومولاه نور الدين زنكي قد استعانوا بالمماليك الذين سرعان ما اصبحوا القواد لهذا الجيش فقتلوا توران شاه اخر ملوك الأيوبيين في مصر وولو شجرة الدر مكانه وتولى المملكة عز الدين ايبك التركماني في ثماني واربعين وستمائة للهجرة))[٩]

ولقد استطاع هؤلاء المماليك بعد ان وطدوا سلطتهم فعل ما عجز عنه الخلفاء العباسيون وكل السلاطين على الأمارات العربية اذ استطاعوا ان يدحروا المغول في معركة (عين جالوت) سنة ٦٥٩هـ بقيادة حاكم المماليك الثاني المسمى قطز الذي قتل بعد ذلك فتولى بعده الملك الظاهر بيبرس البندقداري الذي كان رجلا حازما أحسن إلى الرعية وأزال عنهم كثيرا من الضرائب وفتح بابه للأستماع الى شكواهم وانشأ المدراس والمساجد حتى توفي سنة ٦٧٦هـ وقد تعاقبت على السلطنة بعده ملوك منهم القوي مثل سيف الدين بن قلاوون الألفي الذي لقب بالملك المنصور كما جاء بعده عدد من الملوك حتى سنة ٧٨٤هـ وهو تاريخ انتهاء عصر المماليك))[١٠] والذي نريد قوله ان هذا الوضع السياسي والاجتماعي للبلاد العربية كان واقعا مريرا مؤلما ، قد ترك أثره في الواقع الأدبي ، ولكنه لم يستطع ان يوقف نشاط هذه الأمة او يسكت أبناءها ولم يقض على شعورهم الوطني وانتمائهم القومي ((بل كان هنالك دائما شعور عام في كل مكان بان هذه الأمارات والدول جميعها انما هي وطن واحد ، وطن لا تحدث فيه الأنقسامات اي تقاطع علمي او ادبي ، فقد كان العلماء حين يؤلفون كتابا يتناولون تراجم الشعراء ويجمعون في مؤلفاتهم كل الشعراء في جميع الأقاليم العربية متناسين بل مهملين الفواصل السياسية والجغرافية بين البلدان والأقاليم ، وهناك مظهر ثان من مظاهر وحدة الحالة الثقافية والأدبية هو ان الكتاب حين يؤلف يصبح ملكا لعلماء العالم العربي جميعهم فهم يشرحونه ويكتبون عنه))[١١] وهذا يدل على وحدة الشعور والفكر لدى ابناء هذه الأمة .

ففي مثل هذا العصر المرتبك الممزق الذي لا توحده الا المشاعر والأفكار وقد كانت أجزاؤه نهبا تمكنت قوة المماليك من الاحتفاظ به ،ونشأ هذا الأديب في هذا الظرف وأنتج رسائله ، وقدم لنا جهدا ادبيا متميزا.

وإذا ما كانت الأمة تعاني حالة التمزق والفرقة وهي مازالت تحت صدمة انهيار الخلافة في بغداد فان هذا الدمار قد ترك بصماته على الحالة الثقافية لعموم ارجاء الأمة الأسلامية ((فقد تقلص عدد المدارس من المئات حتى اصبحت لا تتجاوز اصابع اليد))[١٢] وتبدو هذه الحالة اكثر وضوحا في العراق ، اما في بلاد الشام ومصر فان المماليك قد اهتموا بالمدارس ودور العلم فقد كانت مدارس المماليك في الشام ومصر قد بلغت نحوا من سبعين مدرسة ومعهد وان اللغة العربية وعلومها كانت

مزدهرة في هذا العصر ولان المماليك كانوا يتقنونها ويعلمونها أبناءهم ويشجعون على اتقانها والبراعةفيها وفي ادابها ، حتى ان هذا العصر قد شهد ظهور الموسوعات الأدبية الخالدة كصبح الأعشى للقلقشندي(٨٢١هـ ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (٧٣٣هـ) وغيرها. ولقد ازدهر الشعر والنثر في هذا العصر ، والذي يهمنا هو ان النثر في هذا العصر قد ازدهر وتطور حتى ظهر فيه اتجاهان او مساران ، كل مسار اتخذ لنفسه سمات مميزة من غيره ، فالمسار الأول وهو الأوسع انتشارا والأكثر انتاجا هو الذي سلك فيه اصحابه طريق الصنعة والتكلف وان كتابه كانوا يسيرون على طريقة ابن العميد (ت ٣٦٠ هـ) ((وهو الذي اعطى الكتابة في عصر الدول والأمارات صبغتها التي ظلت الأجيال المتوالية تستخدمها وهي صبغة قامت على اساسين كبيرين اولهما السجع والثاني لم يكن متبعا قبله وهو استخدام المحسنات البديعية مع السجع ، والسجع وحده لا يكفي بل لا بد ان تضاف اليه الأستعارة او الجناس أو الطباق))[١٣] – يبدو من هذا النص ان الاستعارة من المحسنات وهي غير ذلك إنما هي ركن من أركان البيان وهذا ما اجمع البلاغيون – وكان هذا النوع من النثر قد طرق مجالات عدة ، منها الديني ككتب الفقه وعلم الكلام ، ومنها ما هو لغوي كمصنفات النحو والصرف والبيان والبديع ، ومنها ماهو اداري وسياسي كالرسائل الديوانية التي تصدر عن ديوان السلطان الى النواب والقادة.

اما النوع الأخر من النثر فهو النثر الأجتماعي الذي تراه في الرسائل الأخوانية التي تكتب وتتداول بين الأشخاص من رتب متقاربة وفيها موضوعات متعددة أيضا فهي تدور حول وصف حادثة او شكر او تهنئة ، ولقد كان لشهاب الدين الحلبي مجموعة كبيرة من الرسائل وهي من النوع الأول من النثر اذ ألف كتبا عدة منها:(حسن التوسل في صناعة الترسل) و(كتاب منازل الأحباب)، و(الذيل على الكامل لأبن الأثير) وغيرها [١٤]

المبحث الأول:

انواع رسائل شهاب الدين الحلبي

لما كان الحلبي كاتبا متمرسا في هذا الفن فقد اشتغل فيه كل حياته وامتلك مهارته واجاد صنعته فانه قد خلف لنا تراثا هائلا من الرسائل الفنية التي تمثلت فيها مقدرته الإبداعية وأظهرت براعته في تقديم الفكرة بأسلوب متميز بليغ حتى بز عددا من أقرانه من المؤلفين والمنشئين، وكانت هذه الرسائل تدور في أنواع أهمها :

الرسائل السلطانية (الديوانية) :

وهي الرسائل التي كانت تصدر من ديوان الرسائل الذي أنشأ في كل ولاية أو سلطنة ، يقوم بواجب اصدار الأوامر والتوجيهات والتعليمات من السلطان الى الأمراء والقواد ومن هم في درجة أدنى .

وكانت هذه الرسائل تتخذ أشكالا متنوعة من حيث المضمون الذي تفرضه مقتضيات الحال وحاجة المجتمع ومشكلاته السياسية والعسكرية والاجتماعية وقد كان السلطان يوكل كتابة هذه الرسائل الى كتاب متميزين بالبراعة وحسن الخط والإجادة في الأسلوب وكان شهاب الدين ممن شغل هذا المنصب ردحا من الزمن ، حتى انه قد وضع سياسة لهذا النوع من الرسائل نجدها في اقواله إذ يرى أن على الكاتب الذي يتصدى لهذا النوع من الرسائل وينهض بمهمة رسمية لا بد له من ((اعطاء كل مقام حقه ، فاذا كتب الى مقدمي الجيوش فليتوخ الأيجاز والألفاظ البليغة الدالة على القصد من غير تطويل ولا بسط ، يضع القصد ويفصل الكلام بعضه عن بعض ، ولا تهويل لأمر العدو ، تضعف به القلوب ولا تهوين لأمره يحصل به الأعتزاز))[١٥] وهذه التوجيهات تمثل السياسة التي يجب على الكاتب السير على وفقها ، ولقد طبق شهاب الدين هذه الآراء على نصوصه النثرية ، وخصوصا رسائلة السلطانية ، ويتضح ذلك من رسالته التي انشأها الى مقدم سرية كشف يقول فيها ((لازال اخف

في مقاصده من وطأة ضيف ، واخفى مطالبه من زورة طيف ، واسرع في تنقله من سحابة صيف ، واروع للعدى في تطلعه من سلطة سيف .... الى ان يقول تحثه على الركوب بطائفة اعجل من السيل واهول من الليل وايمن من نواصي الخيل واقدم من النمر واوقع على المقاصد من الغيث المنهمر ، واروع في مخاتلة العدى من الذئب الحذر ..))[١٦]

ويتضح من هذه القطعة النثرية كيف لاءم بين الموضوع الذي كتب فيه والأسلوب الذي اتبعه ، فهو يختار الكلمات التي توحي بالمعاني والمقاصد التي يتطلب حضورها واثارتها لدى أمراء سرية الكشف المتقدم أمام الجيش ، اذ لابد لها من ان تتصف بالخفة واليقظة والحذر وكل هذه المعاني نجدها حاضرة في هذا النص الذي اقتطعناه من رسالته، اما إذا كانت الحرب هي السائدة والحزم هو المطلوب والعدو هو الهدف الذي يجب ان ينجز بالقضاء عليه واحراز النصر ، فلا بد من الفاظ اكثر متانة واوقع في النفوس والى ذلك يشير شهاب الدين بقوله ((وليكن ذلك في امتن كلام واجله وامكنه في قربه من القوه والبسالة وابعده من اللين والرقة ويبالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى واستنزال نصره وتأييده والاعتصام به))[١٧] وهذه التوجيهات والوصايا الفنية نجدها ماثلة في كتاب له اصدره الى بعض نواب الثغور عند حركة العدو فهو يقول (اصدرناها ومنادي النفير قد اعلن ((يا خيل الله اركبي ،ويا ملائكة الرحمن اصحبي، ويا قواد الظفر والتأييد اقربي ، والعزائم قد ركبت على سوابق الرعب إلى العدا ،والهمم قد نهضت إلى عدو الإسلام ، فلو كان في مطلع الشمس لأستقربت مابينها وبينه من المدى والسيوف قد اتصلت من الغمود فكادت تنفر من جرابها والأسنة قد ظمأت الى موارد القلوب ... والكلمات قد زأرت كالليوث اذا دنت فرائسُها ... والنفوس قد اضرمت الحمية للدين نار غضبها ...))[١٨] والذي نلحظه في هذه الرسالة ميلها الى استعمال الألفاظ ذات الوقع الشديد فهي ذات اصوات مجهورة وذات تراكيب قصيرة شديدة التأثير في نفوس الأعادي ، حين استعمل اسلوب النداء لما له من اثارة الهمة وايقاظ النفوس وبث الحمية فيها بالأنابة الى الله تعالى ، وتوجيه الجهود الى الهدف الذي به تسعد الأمة ويطرد الشر ، من ساحة الأوطان ، التي يحاول الأعداء تدنيسهاوهذا يدل على أن شهاب الدين الحلبي قد وفق في اختيار الألفاظ المناسبة لكل مقام وكأنه يعمل بنصيحة بشر بن المعتمر(٢١٠هـ) حين اوجب ذلك بقوله (إن لكل مقام مقالا) فنراه قد طبق هذا القول احسن تطبيق فابان ما للسياق من اهمية في النص ، اذ ان كل نص ادبي لابد له من محددات واهمها السياق اللغوي الذي يجري فيه جريان النسغ في النبات ، والسياق المقامي الذي يفرض نوعا معينا من الألفاظ والتراكيب ، لا يستطيع الكاتب العدول عنها الى غيرها ، الا في حالات تستوجب ذلك .

التقليدات والتواقيع :

وهي نوع من انواع الرسائل كانت تنشأ في الديوان وان عدت جزءا من الرسائل الديوانية غير أنها تمتلك سمات خاصة لذلك أفردت لها هذا المبحث، فكان شهاب الدين الحلبي مجيدا فيها فقد قدم لنا نماذج عديدة ، اوضح فيها كيفية اقامة مثل هذه التقليدات التي تصدر من السلطان الى عماله واركان دولته اذ يتطلب الأمر ان تكون هناك تقليدات وتواقيع وهي دائما قصيرة تصدر للتصديق او للتقدير ، او للتكليف بامر اداري معين ضمن صلاحيات محدده ، ولذلك وجب ان تتميز بسمات يجملها لنا شهاب الدين بقوله (اما التقاليد والمناشير والتواقيع و مايتعلق بذلك ، فالأحسن فيها بسط الكلام وتغيير كثرته وقلته بحسب الرتب ويجب ان يراعى فيها امور منها :

١. براعة الاستهلال بذكر الرتبة او الحال او قدر النعمة .

٢. ان يراعى المناسبة وما يقتضيه الحال فلا يعطي احدا شيئا فوق صفته.

٣. ان يتخير الكلام والمعاني ، فانه مما يشيع ويذيع.

وهذا يدل على الفهم الصحيح للحالة وعلى اعطاء المقام أهمية في النص الذي ينشئه فهو يؤكد (مما يشيع ويذيع) لأنه لا بد للعامة من معرفته وفهمه وهذا يتطلب ألفاظا شائعة متداولة ، وذات حضور في حديث الناس ومداولاتهم ، فلا بلاغة عالية فيها ، ولا تفنن، إنما بسط وتوضيح وبيان ، ونجد ذلك في نص له يقول: (الحمد لله الذي خص ايامنا الزاهرة باصطناع ملوك الملل وفضل دولتنا القاهرة باجابة من سأل بعض ما احرزته لها البيض والأسل ، وجعل من خصائص ملكنا اخلاق الممالك وإعطاء الدول ...))[١٩]وهذه الرسالة طويلة ذكرها النويري ونلاحظ فيها الميل الى البساطة في االألفاظ والصور الواضحة ، فهي تنساب كالحديث ، فلا انتقاء للألفاظ يوقد في الذهن الانبهار ويثير الانتباه ، إنما هو عرض وتوضيح بأسهل الطرائق وابسط الأساليب ، مقرونة بما شاع في ذلك الزمان من استعمال السجع والمحسنات البديعية ... ومن ذلك ايضا تقليد في الفتوة كتبه يقولا فيه ((نحمده ما منحنا من نعم ووهبنا من علم فغدونا بها اشرف من افتى ... الى ان يقول ... وانتهى من بنوه المروءة الى سبب قوي ونسب زكي وارتدى ملل الوفاء بواسطة الفتوة عن خير وحي عن اشرف نبي ، ونشهد ان محمدا عبده ورسوله (الشرف من انتمائنا اليه ، فلا سيف الا ذو الفقار ولا فتى إلا علي))[٢٠] وفي هذا النص دلالة واضحة على استعمال الألفاظ الواضحة والأبتعاد والغموض والتعقيد ، والأهتمام بالتراكيب اللغوية ذات الدلالات التي لا تحتاج الى جهد او عناء كما انه قد ضمن الفاظه ألفاظا ذات شهرة ولها حضور في مدارك المتلقين ، وقد سبق ان ارتكزت في ذواكرهم وما تعنيه لهم من معان ليست بعيده عن فهمهم وادراكهم إنما هي واضحة وتسير على وفق أسلوب سلبي يعتمد تقديم الخبر ونلجأ الى الأستعارة او الكناية او اي فن بلاغي اخر يزيد النص جمالا وتأثيرا.

الرسائل الأخوانية (الاجتماعية):

وهي لون من الوان الرسائل التي كانت شائعة منذ القرون الهجرية الاولى، وقد كانت تدور بين الكتّاب انفسهم ومن في مرتبتهم، وهذا يدل على ان القارئين لها قلة ،وان موضوعات (الكتابة الأخوانية ظلت نائية عن الموضوعية والجماهيرية محصورة في دائرة طبقة لا تتجاوز شخصين يتراسلان))[٢١] وهذه الرسائل قد لاقت رواجا كبيرا في هذا في هذا العصر ((لأن الأدباء لم يعنوا بالرسائل الأخوانية سابقا بل كانوا يعنون بها في الأزمنة المتأخرة الا اذا كانت اشبه بالبلاغة او نهاية في الجمال والصنعة))[٢٢] وقد كانت رسائل شهاب الدين الحلبي من هذا الصنف الذي يعج بالبلاغة والجمال ، إذ انه قدم لنا رأيا يشرح اهمية هذه الرسائل ويسوغها للكاتب فيقول ((أما الكتب الأخوانية والكتب التي تعمل رياضة للخاطر فيما يقل وقوعه لأحتمال ان يقع او فيما تمتحن به قوة القريحة ويعتبر به تصرف الفطنة ويسبر به غور الذهن ويعلم به استعداد الفكر ، فان الكاتب في ذلك الأمر مطلق العنان تجلى بينه وبين قوته فيه او ضعفه ، لكن على كل حال يراعى كل مقام بحسبه))[٢٣] فهذه مسوغات العمل الفني الذي يقدم الرسائل الأخوانية ويظهرها بالمظهر اللائق الذي يثير الفكر ويسلي الخاطر ،((فقد يكون رياضة للفكر او راحة للنفس او دعوة للمشاركة في الهم او الفرح وعلى الرغم من هذا فان الجانب الشخصي كرسائل التهاني والأعتذار والتقريظ وما شابهها ، وتوسعها السذاجة في المعاني اللفظية ونسج الألغاز))[٢٤] ومن جميل رسائله نقتطع هذا المقطع من رسالة له سجلها على لسان المولود لوالده ، يقول ((تقبل الأرض ابتدءا بالخدمة من حيث ظهر الى الوجود او تشوقا الى امتطاء صهوات الجياد بين يدعو سيده قبل المهود ، وتيمنا ان يكون اول شيء يقع عليه نظره من الدنيا وجه مولانا الذي تعلو بنظره الجدود وتتيمن برؤيته كواكب السعود..))[٢٥] وله في هذا النوع رسائل عديدة متنوعة.

والذي نلمسه في هذا المقطع من النص ، اهتمامه باظهار العاطفة وابانة تأثيرها ، وفضح الأحاسيس وكشف اغوارها ، فابتدأ بألفاظ اعتاد الكتاب في زمانه استعمالها حتى غدت سنة متبعة ، ومنهجا لا يخرج عليه احد منهم ، ومن هذه الألفاظ والتراكيب ، قوله ((تقبل الأرض)) ولهذا التركيب

حضور في رسائل عهده وزمانه وربما كان للأوضاع الأجتماعية اثر كبير في شيوع هذه التراكيب واعتمادها في نصوص الرسائل فيما خلت رسائل العصور التي سبقت هذا العصر من هذه التراكيب والدلالات الوافدة على أساليب أبناء الأمة وطرائق كتابتهم .

المبحث الثاني

الظواهر الفنية في رسائل شهاب الدين الحلبي :

ان تعدد انواع رسائل شهاب الدين وتنوعها بحسب الموضوعات التي تناولها للأغراض التي انشأت من اجلها ، جعلها تزخر بظواهر فنية ، ميزتها من غيرها من الرسائل ، وهذه الظواهر ليست بعيدة كل البعد عن ظواهر البيئة الأدبية في عصر المماليك ، انما هي ميزة ذات خصائص ، تبدو لي اكثر وضوحا عنده من غيره من الكتاب او ربما اتضحت هذه الميزة ، بسبب القدرة الفنية العالية التي يمتلكها شهاب الدين ، إذ إن اشتغاله في ديوان الإنشاء حتم عليه الأخذ بسلوك من سبقه من الكتاب في الإنشاء ، وتطوير هذا السلوك اي محاولة الظهور باسلوب جديد لا يبتعد عن المنطق الأدبي السائد في عصره الذي عاش فيه ، ولا عن البيئة التي نما فيها ، انما يحاول ان يلتمس له خصوصية تبرزه وتعطيه حق الوجود بين الكم الهائل من الرسائل في عصره والعصور التي تلته ، وقد كان له ذلك ، إذ أن قراءتنا لرسائله أوصلتنا الى أن هناك ظواهر فنية ميزت رسائل شهاب الدين ، ويمكن اجمالها في الآتي :

١-سلطة النص القرآني :

ان نشأة شهاب الدين وتعليمه الديني وخدمته الطويلة في ديوان الأنشاء قد زودته بقابلية الأخذ من النصوص الأدبية ذات الجودة الراقية ، وأن القرآن الكريم لهو الأجود والأجمل والأعظم بيانا من غيره من النصوص ، فاذا ماعرفنا ان شهاب الدين قد درس القرآن في شبابه وتعلم على اساتذة اكفاء في علوم اللغة والدين ، فهنا نلمس ما تحقق في رسائله من هذه السمة التي لابد من توضيحها اذ ان سلطة النص تعني ((قوة المعاني او المباني التي تنفرد بها النصوص الجيدة الرفيعة التي تصور في دقة الخوالج والأحاسيس وتجسد جمالية الخبرات والتجارب وتبني من خصوصيتها في اللفظ والمعنى بين المبدع والمتلقي جسرا من التواصل الإدراكي))[٢٦] الذي يوفر الانجذاب والانبهار والتأثر والذي يظهر مرة بصورة جلية واضحة عندما يتخذ الكاتب المتأثر بالنص المؤثر ، شكل النص السابق المؤثر وعنوانه وتراكيبه أو عندما لا يتخلص الكاتب من تأثير ما قرأ أو ما تأثر به من نص سابق على نصه ، فكأنه اعاد صياغته وان هذا التأثير عند شهاب الدين الحلبي ، قد يبدو واضحا عندما تقرأ له نصوصا ، نراها لاتكاد تخرج عن النص القرآني صاحب الأثر الواضح في رسائله ، بل كانت قريبة من التعاليم الدينية الإسلامية ، حتى نتصورها دعوات صريحة إلى النص القرآني او انها تريد أن تنبه على أهمية الآراء والأفكار والمعاني التي وردت في النص القرآني ، صاحب التأثير المباشر في الرسالة المنشأة فهو قد يدخل نصوصا قرآنية في نصه ، لأثرائه معنويا ، وجماليا في رسائله التي نلمس فيها سلطة النص القرآني الواضحة وهذا ما نجده متحققا في قوله أو رسائله التي كتبها في فتح حصن المرقب ((وتخلخلت قواعد ما شيد من أركانه، فانحلت وانشقت سماؤه من الجزع ، فألقت مافيها الى الأرض وتخلت ، ومشت النار تحتهم وهم لا يشعرون ، ونفخ في الصور ، بل في السور فأذاهم قيام ينظرون ، فلجؤا إلى الأمان وتسمك ذل كفرهم بعزة الأيمان وتشبثوا بساحل الظفر حين ظنوا أنهم أحيط بهم وجاءهم الموج من كل مكان))[٢٧] وفي هذا النص تبدو سلطة النص القرآني قوية جدا حتى لم تترك للكاتب الا بعض التلاعب بالألفاظ وتغير طفيف في مواقع الكلمات ، اما المعاني فهي المعاني القرآنية التي جاءت بها آيات كثر ، و كذلك من خلال الألفاظ التي استعملها وهي الفاظ قرآنية والتراكيب المشابهة لها مثل انشقت السماء ، وألقت ، وهم لايشعرون ، ونفخ في الصور ، فأذا هم قيام ينظرون ، ويختم هذه الرسالة بالأية القرآنية الكريمة التي نصها ((هو الذي يسيركم في البر والبحر

حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة فرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين))[٢٨]ولم تكن هذه الرسالة قد استمدت المعاني القرآنية فحسب ، إنما تبدو عليها علامات التأثر الواضح بالنص شكلا ومضمونا فالشكل الفني لهذه الرسالة يريد ان يحاكي النص القرآني ، اذ انه يلجأ الى استعمال اسلوب الجمل المتوازية ، مشفعا ذلك بالسجع الذي اثبته في نهاية كل فقرة من فقر رسالته ، فنراه يقول ((وتخلخلت قواعد ماشيد من اركانه فانحلت وانشقت سماؤه من الجزع فألقت ...))[٢٩]وغيرها من الجمل التي حاول فيها اتباع اسلوب التوازن ، والالتزام بالنهايات المسجعة للفقر ، وبذلك تبدو سلطة النص القرآني واضحة وجلية.

وقد تبدو سلطة النص القرآني بصورة أخرى وهي ما تسمى بالاقتباس من القرآن وشهاب الدين يعرف هذه الظاهرة بقوله الأقتباس هو (ان يضمن الكلام شيئا من القرآن والحديث ولا ينبه عليه للعلم به))[٣٠]أي أن النص القرآني يأتي شكلا ومعنى من دون الإشارة إليه أو تنويه به ، لأنه معلوم لدى المتلقي ، وهذا اللون من الكتابة نجده قد اتبعه في بعض رسائله ومن ذلك تقليد كتبه . للملك المنصور حسام الدين ، يقول فيه: (وجعل عدوه ، وان اعرض من طلبه بجيوش الرعب محصورا وكفاه بالنصر على الأعداء التوغل في سفك الدماء ، فلم يسرف في القتل (انه كان منصورا))[٣١] ونجد أيضا في رسائله مايؤيد ما ذهبت اليه من انه كان يقتبس المعاني القرآنية ويدخلها في نصه الأدبي رسالة ، أو تقليدا، أو مكاتبة ، ففي كتاب كتبه إلى ابن الأحمر صاحب غرناطة في الأندلس ، نراه ينزع الى التقليد الذي تبدأ به الرسائل في عصره ثم يعرج الى اسلوبه ، فهو يرى هذا النوع من الكتابه لا بد له من ان يسلك طريقا يتعين على الكاتب فيه هذه الأمور وهي ((ان يكون البسط اكثر والأطناب امر والتهويل ابلغ والشرح اتم))[٣٢] ولأجل ذلك تراه يلتجئ الى النص القرآني الذي يمتلك القدرة العالية على تهويل الأعداء وإخافتهم ، فالقرآن في هذه المواقع والمواضيع ، افصح من ابانها وادق من صورها الكاتب شهاب الدين بعد ان يحمد الله ويثني عليه في مقدمة جوابه هذا ، نراه يقتبس النص القرآني ، عندما يريد ان يصور همة قومه ورجاله فيقول ((وحصدت منهم سيوفنا المنصورة مايخرج عن وصف الواصف ، ومزقت بقيتهم في الفلوات فكانوا))[٣٣] ((كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف))[٣٤] فالتصوير القرآني لأعمال الكافرين ، كان افضل تصوير رآه شهاب الدين فاستثمره افضل استثمار من اجل قوة معانيه ودقة غرضها. وهذه الأشارات التي اوردها البحث تشكل سمة بارزة في نصوصه النثرية ، وتشير من جانب اخر الى النشأة والتربية وسمات العصر ، وكذلك تشير الى المقدرة العالية على الأخذ من القرآن واتباع اسلوبه ، والنهج على طريقته وهذا مما يدل على ان اي نص لابد له من أن يترك بصمات نص سبقه ويشير اليه ولو من طرف خفي.

٢-سلطة النص التراثي :

ان اي نص ادبي ينشأ لابد ان يستمد قوته من مصادر ، تؤهله لكي يكون نصا قادرا على الديمومة ، وتضمن له البقاء كما تضمن له القراءة ، والبحث والدراسة والتأثير ، غير محدود بزمان ، او مكان ، عندها لابد له من استكمال هذه العناصر وصياغتها في قالب ، فني ، يعطي جمالا ويمنح افكارا ، ويقدم تفسيرات او يقترح تأويلا ، وهذه المصادر هي مايوفره له الواقع وماتمده به البيئة العلمية التي ينشأ فيها ، ويتلون بالألوان السائدة وقتذاك ، فقد تأتي تأثيرات البيئة العلمية التي ينشأ فيها ، متسلطة قوية تفرض خواصها ولا تمنح الكاتب الحرية ، اي انها تأخذ من حريته في الكتابة اي انها تحدها وتقيدها ، فلا هو قادر على الخلاص من تأثيراتها ولا هو سائر في ركابها ، وبهذه الحالة ، يكون الأديب او صاحب النص قد سلك طريقا وسطا ، قد يجنبه بعض ماتركه ويؤثر فيه ضمن قيوده واعرافه الأدبية او قد يقرب له الملاءمة والعيش الهاديء ، اما اذا ما اراد ان يخوض عباب البحر فله حظه في المرصاد ، فربما اجاد وربما اخطأ وفي الحالتين فهو يسجل إبداعا قد يوفق فيه او قد يخفق.

وكاتبنا شهاب الدين الحلبي ومن خلال دراستنا لآثاره الأدبية وخصوصا رسائله نجده قد ساير النص التراثي ولم يحاول الخروج عن مسلّماته ومحدداته ، وخواصه ، فهو منقاد الى سلطته الجائرة ، وتبدو تلك السيطرة التي فرضها النص التراثي على رسائل شهاب الدين الحلبي واضحة منذ الوهلة الأولى وهو يضع للكاتب شروطا ويطلب منه امورا قد سبقه اليها من سبق من كتاب ومؤلفين وضعوا شروطا لهذه الصنعة ، سار عليها من سبقه ،فقد كان مرادا لهم ولا يشكل عملا قسريا ،إنما هي تقاليد وعادات ساروا عليها، فشهاب الدين الحلبي قد سلك طريقهم فهو يقدم لنا نصائحه التي يراها واجبة التنفيذ كي يضمن الكاتب القدرة على الاستمرار في الكتابة وخوض غمارها بكل ثقة ، فيعدد لنا هذه الأدوات وهي كثيرة ،منها :((إن على كاتب الإنشاء وان كان يحتاج الى التعلق بجميع العلوم والخوض في سائر الفنون ، فليس احتياجه الى ذلك حد واحد بل منها ما يحتاج اليه بطريق الذات وهي مواد الأنشاء التي تعد منها ويقيس من مقاصدها كاللغة التي منها استمداد الألفاظ والنحو الذي به استقامة الكلام وعلوم البلاغة والمعاني والبيان ممن هي مناط التحقيق والتجنيس والتنقيح وكذلك مماجرى هذا المجرى ،وعلى هذا اقتصر الوزير ضياء الدين بن الأثير في المثل السائر وتبعه على ذلك الشيخ شهاب الدين الحلبي))[٣٥] بهذه المقطوعة يصور لنا القلقشندي حال الكتابه عند شهاب الدين الحلبي ومن سبقه ، فهم سائرون على وفق آلية واحدة معتمدة لا تجديد فيها ، وهذه الشهادة تغنينا عن القول بان اراء شهاب الدين الحلبي في الذي يتصدى للكتابة هي اراء من سبقه من الكتاب فقد تحدث الجاحظ في كتاب البيان والتبين عن ضرورة تزود الكتاب بالمهارات وعددها[٣٦] وكذلك اوضح ابن قتيبة في كتابه ((ادب الكاتب))[٣٧] هذه الشروط والمتطلبات ، هذا التكرار الذي يقدمه شهاب الدين الحلبي في رسائله للمبتدئين ، انما هو اثر واضح لسلطة النص التراثي التي لم يستطع أن يتخلص منها ، وتبدو هذه السلطة اكثر وضوحا وهي تلجئهُ إلى اخذ المعاني التي تناولها الشعراء والأدباء قبله وصاغوها في قالب فني خاص اي ان الفكرة قد البست ثوبا فنيا ، اظهرها جميلة ، فدعت كاتبنا الى تقليدها ، نازعا عنها في مهارة احيانا الشكل الفني الأدبي الذي ارتدته ، ومغيرا حلتها في عملية من عمليات التغيير والأمتزاج بين الفنون الأدبية ، وهي فكرة ربما نجد لها الآن في الواقع الأدبي حضورا ينمو ويتسع متخذا من الأساليب الحداثوية طريقا لمزج الفنون الأدبية في قوالب تحاول كسر البناء الذي اعتادت عليه الأساليب القديمة والإتيان بقالب فني جديد الى اسلوب لا يترك لها الخصوصية بل يحاول الظهور بمظهر يتجاوز النوع االأدبي الى نوع آخر يمزج بينها ، وينتج نصا عابرا لها ، نصا أدبيا يمتلك مقومات اخرى ، ليست مزجيا موحدا إنما هو خلق جديد ، ولا اظن ان هذا الكلام كان حاضرا في مخيلة شهاب الدين الحلبي وهو يقوم بحل البيت الشعري ، اي كسره واستخراج معناه ثم صياغة المعنى في قالب فني آخر وبأسلوب يبتعد عن الشاعرية الى البسط والتوضيح والنثر اقدر على ذلك هذه العملية يطلق عليها في التراث الأدبي العربي عملية (الحل) وهي عند شهاب الدين ((ان تتوخى هدم البيت المنظوم وحل فرائده من سلكه ثم ترتب تلك الفرائد او ماشابهها ترتيبا متمكنا لم يحصره الوزن والأضطرارات الفنية))[٣٨] ولكي يدلل شهاب الدين الحلبي على قدرته هذه فانه يضرب لنا مثلا في حل البيت الشعري اي في خلق نوع ادبي اخر ياخذ المعنى ويقدمه بنوع ادبي جديد وهو مقطوعة نثرية تتميز بـ ((باناقة العبارة وزخرفة الأسلوب والتزام السجع))[٣٩]حتى غدا النثر الذي يسلك هذا المسلك وغيره من انواع النثر المتأنق فاذا به (نثر منظوم او هو شعر منظوم) ويتساءل شوقي ضيف (ما الذي يفصل بينه وبين الشعر؟ اذ يراه يعتمد على الموسيقى موسيقى السجع ، كما يعتمد على زخرف البديع ، وبسبب ذلك صارت المعاني تدور على ذاتها وتتكرر ، فهي اعادة صياغة لا ابداع فيها ، ولا جمالية ، اللهم الا في الموسيقى التي تغيرت ايقاعاتها بين ايقاعات ثابتة في إلى إيقاعات اقل منها ثباتا على طول النص ، ونلمس ذلك في حله لبيت الشاعر ابن الرومي الذي يقل فيه:

وحديثها السحر الحلال لو انه لم يجز قتل المسلم المتحرز

فقال ((وكفى بالسيوف فخرا انها للجنة ظلال والى النصر مآل ، اذا كان من بيان الحديث سحر ، فان بيان حديثها عمن كلمته هو السحر الحلال))[٤١] وفي هذا النص تتضح البساطة التي سار عليها النص لان الكتاب في تلك الأزمنة يبدو أنهم ((عجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمره في البلاغة ....وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية ويغفلون عما سوى ذلك))[٤١] وهذا الاهتمام كان غالبا على الذوق العام لذلك صار من أولى الأسباب التي أدت إلى سيادة هذه الظاهرة واقصد بها سيطرة النص التراثي ، هو ان النثر العربي ومنذ القرن الرابع الهجري ، قد انحرف عن الظهور بالمظهر الذي جاء به الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) من حيث قوة وسلاسة الأسلوب وعمق الفكرة وجمال العبارة التي ميزت كتاباتهما ، فقد سار النثر بعيدا عن هذه الطريقة عندما ((اعتلى بعض الكتاب سدة الوزارة ، مما جعل طريقتهم في الكتابة نموذجا يحرص الجميع على الاحتذاء به وتقليده))[٤٢] وهذا ما لمسناه في رسائل شهاب الدين الحلبي ، فهي لا تكاد تخرج عن هذا التقليد بل تحافظ عليه ، وتدعو اليه ، فلا تجديد ، انما إعادة لما سبقه من الكتاب وبزيادة في التأنق ، وإكثار المحسنات البديعية. فالمعاني معادة والأسلوب تغير والموسيقى انحرفت ايقاعاتها وتبدلت انغامها ، فصار النص لايقدم ابداعا ، ويثير عاطفة ، انما يحاول ان ينقل فكرة ويوصل رأيا الى متلقي وبطريقة فنية تشعر فيها الهبوط وربما الابتذال أحيانا ، والضعف في الأداء الذي لا يريده منشئ النص النثري .

المبحث الثالث

المحسنات البديعية في إنشائه

يبدو لنا في النص النثري الذي كتبه شهاب الدين الحلبي ، بروز ظاهرة المحسنات البديعية التي استنفدت مهارته واستهلكت كل جمال النص وثرائه ، وجعلته نصا مظهريا في عنايته ، وكأن الشكل الفني هو الأساس الذي تقوم عليه الرسالة وهذا الفعل ألحق إجحافا بالمعنى الذي من اجله ينشأ النص الأدبي والرسالة خصوصا ، فعند شهاب الدين الحلبي تتخذ الرسالة طابعا محددا يفرضه المقام ويحدد سماته الغرض ، فيما يكون الإكثار من المحسنات البديعية ، من سجع وجناس وتكرار وازدواج ، هو الغالب والسائد في النص ، ولا نكاد نرى نصا له الا وقد ضج بهذه المحسنات التي لو قل الإفراط فيها لصارت مثلما قال عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) تمتلك القابلية على تعضيد المعنى ، فهو يرى ((ان مايعطى للتجنيس من الفضيلة امر لم يتم الا بنصرة المعنى ، اذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه الا معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به))[٤٣]ولهذا كان كلام المتقدمين من بلغاء العرب ، لا يعير اهمية قصوى لهذا الفن ، انما يرد عفويا من غير تكلف ولا صنعه منهم ((وفد لزموا سجية الطبع امكن في العقول ، وابعد من القلق ، واوضح للمراد ، وافضل عند ذوي التحصيل ، واسلم من التفاوت واكشف عن الأغراض))[٤٤] ولكن الذي جرى بعد القرن الرابع الهجري على النثر العربي عموما و ما نلاحظه وبشدة وضوح عند شهاب الدين الحلبي ، انه يعتمد السجع الذي كان معروفا منذ اول القرن الرابع الهجري ، ولكنه ادخلت عليه ضروب من الموازنة بين السجعتين المتواليتين بحيث اصبح الضرب ضرورة لازمة فيه ، وهذه الشروط والقيود يفرضها الشكل الذي ينشئ به الرسالة اذ تكثر فيها الإيقاعات المتكررة ، حتى لتفقد المعنى سطوع دلالته ، وتجذب السامع الى بريق الألفاظ ، وتعاقب الإيقاعات ، فإذا هو كما قال الجاحظ بعيدا عن الصنعة قريبا الى التصنع الذي لا يستهوي بلغاء العرب القدماء ، اذ اجمعوا على أن ((الكتّاب يقعون على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتجة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى كل كلام له ماء ورونق وعلى المعاني اذا صارت في الصدور عمرتها واصلحتها من الفساد وفتحت لسان باب البلاغة ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ واشارت إلى حسان المعاني))[٤٥] وهذا لا نجده في

رسائل هذا العصر ، فقد اكثر شهاب الدين الحلبي من السجع الذي يبنى على الجمل القصيرة ، وبشكل مكثف يلف النص ويحتويه وهذا النوع هو النوع النادر في نظر ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) حين قسم السجع على قسمين ((القصير وعده نادرا والطويل وهو الأسهل تناولا والقصير عنده لفظتان حتى العشر ، ومازاد فهو طويل))[٤٦] وهذا النوع هو الشائع في رسائل شهاب الدين الحلبي ، ولم يكن للسجع وحده النصيب الأوفر من المحسنات بل أن شهاب الدين وكتاب عصره ((المتأخرين ، استعملوا اساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزم التقنية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض وصار هذا المنثور اذا تأملته من باب الشعر ومنه لم يفترقا الا بالوزن))[٤٧] وإذا ما كانت هذه الأوصاف منطبقة في رسائل شهاب الدين الحلبي ، فانا نراه لا يحبذ هذه الأساليب ويدعو الى الأقلال من السجع والمحسنات البديعية لكنه يطبقها بوضوح وبتقنية عالية ، اذ نراه في رسائله يوازن عباراته موازنة تدفعه الى استعمال البديع فان تركه كان الى الازدواج ويبدو ذلك واضحا في قوله: ((وسرنا بالجيش الذي لايدرك الطرف حده ، ولا الوهم عده ، فكأن ذوائب السحاب عذب بنوده ، وكأن شوامخ الأكام مناكب ابطاله ومراكب جنوده))[٤٨]وفي هذا النص يظهر الالتزام الدقيق بالسجع المزدوج فقد التزم بحرفين (الدال والهاء) في نهاية كل فقرة من مقاطع رسالته ، وقد نجد له العذر إذا ما عرفنا أن الذوق العام هو ذوق التصنع ، فان الزمن الذي عاشه كان يحفل بهذا الفن ، ويقدره اي تقدير حتى نراه يلجأ الى فلسفة هذا الرأي والدفاع عنه ، عندما يرى ان الأسجاع موضوعة يجب ان تكون ساكنة الأعجاز موقوفا عليها ، لأن الغرض ان يجانس بين القرائن ويزاوج بينها ، ولا يتم ذلك الا بالوقوف على الفقرات والتي تدل على قوة التمكن واحكام الصنعة لأنه يرى ((ان التلذذ يزداد عند السامع بما زاد على ذلك اكثر لشوقه الى مايرده))[٤٩] وكأن القصد هو الإيقاع والإكثار من الضربات المنتظمة على اذن السامع لا المعنى الذي هو الهدف الأسمى وعليه محور النص الأدبي ودعامة النص وركيزته .

إذ أن القلقشندي يعد هذه المحسنات من السمات الواجب توافرها في النص الأدبي ، اذ بها تتم البلاغة ، وان نقصانها ينقص من قيمتها المعنوية ، ويعد من يدخل في نصه الأدبي هذه المحسنات ماهرا ((لأن الماهر في علوم البلاغة ، ومنها البديع الذي عن طرقها استطاع ان يأتي في كلامة بالسحر الحلال وصاغ من الفاظه ومعانيه مايقضي له بالفصاحة التامة والبلاغة الكاملة من وحده تحقيق الكلام وتحسينه وتدبيجه وتنميقه ، واذا مافاتته هذه العلوم نقصت صناعته بقدر ماينقص ذلك))[٥٠] وعلى هذه الطريقة كانت الرسائل تمتلئ بهذه المحسنات ، مشفوعة بلغة سهلة والسهولة يعرفها ابن جني (ت ٣٩٥ هـ) ((بانها يراد بها خفة اللفظ كما تطلق ويراد بها وضوح المعنى))[٥١] وان هذه السهولة تبدو اكثر وضوحا في رسائل هذا الزمان وخصوصا رسائل شهاب الدين الحلبي ،على الرغم من أن هذا المذهب ليس بالجديد إنما هو (مذهب قديم في الأدب العربي ، نراه في عصر النبي (صلى الله عليه واله وسلم) ونرجح انه كان موجودا في الجاهلية ، اذ لايعقل ان يبلغ العرب في جاهليتهم مابلغوه من التقدم التجاري فيكون لهم اتصال باليمن والشام والروم وفارس ، ثم لايكون لهم من نثر غير الأسجاع التي تعبر عن العواطف الدينية والنظرات الأخلاقية))٥٢لكن هذه السهولة أصبحت اكثر شيوعا وانتشارا لأسباب منها :

١) اسباب بيئية : فالبيئة سهلة واضحة جميلة ، اذ ان بيئة اهل الشام مكتنزة بالأزهار والحياة ، فهي واضحة وهذا الوضوح ساعد على إيراد الألفاظ السهلة والجميلة والمنسابة كانسياب انهار وجداول هذه البيئة .

٢) اسباب سياسية واجتماعية : يمكن فهمها عندما نعلم ان حكام هذه البيئة من المماليك وهم اقوام مستعربة ، اي ان اللغة العربية وافدة عليهم وطارئة على السنتهم رغم الأهتمام الذي ابدوه في

تعلمها وتعليمها ، ولما كانت الرسائل تكتب لهم ، وجب على الكاتب ان يراعي المقام ، وهذا مانراه في رسائل شهاب الدين الحلبي .

الخاتمة :

ان ما يخرج به قارئ رسائل شهاب الدين الحلبي (ت ٧٢٥هـ) ، يمكن إجماله في الوقوف عند الظروف التي ألمت بالنص ساعة إنتاجه من تنوع البيئة وأثرها ، وتغير الزمان فأحدثه،وهذه سمات ظهرت جلية على سحنة النص الأدبي ، فأعطته خصوصية ، وميزته بخصائص هي جزء من خصائص عصر ، ودلالة على حياة اجتماعية وسياسية عاشتها الأمة الأسلامية ، بعد التفرق والانكسار وبعد الخضوع لسلطان الأقوام الأعجمية ، وما ترك هذا من اثر في الأدب والحياة بصورة عامة، ولعل أكثر ما وجدناه من هذا التأثير مايمكن تصنيفه وعده فيما بعد سمة لعصر وعلامة فارقة فيه ، إلا وهي تخلف المجتمع وضياعه ،لكننا لانعدم أن نجد في هذه الأمة من استطاع أن يقدم جهدا ظل خالدا في سفرها العتيد لأنه خدم تراث الأمة ودينها وعلومها ،والكاتب شهاب الدين الحلبي كان واحدا من هؤلاء الذين تميزوا بالمقدرة الفنية في إنشاء الرسائل على اختلاف اضربها ، فهي سلطانية أحيانا واخوانية مرة أخرى ولكل منها خصائصها التي انفردت بها ، ولكنها تميزت بسمات اوضحها البحث في مباحثه الثلاثة وهي سلطة النص القرآني القوية على النص الأدبي الذي كتبه شهاب الدين ، وتبدو واضحة في المعاني والشكل كما تبدو واضحة سلطة النص التراثي ، بما يحمل من أفكار وأراء ومعانٍ قد جاءت بنوع ادبي اخر ، لكنه استطاع ان يغير هذا النوع وينتج لنا نصا ، يحمل المعنى ويغاير الأصل في الشكل فقط .

كذلك ظهرت لنا آثار الزمن والعصر ، بما فيها من سمات فنية تمثلت بشيوع المحسنات البديعية حتى غدا النص زخرفا وتنميقا وتحسينا مفرطا، اثر في المعنى فاضعفه ، فاذا به يميل الى التصنع ويبتعد عن الصنعة التي سادت النثر العربي أيام زهو دولته وعزتها في القرون الأولى للدولة الإسلامية.

الهوامش:

(١).ابن السلعوس هو :شمس الدين محمد بن ابي الرجاء التنوخي المعروف بابن السلعوس المتوفى سنة ٦٩٣هـ– ينظر :النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة–ج٨/٤

(٢).ينظر: الدرر الكامنة: مج ٢/ج٤/١٩٩٨

(٣).البداية والنهاية: ١٤ / ١٢٤

(٤).حسن التوسل الى صناعة الترسل : ١٧

(٥).فوات الوفيات : ٤ / ٨٢

(٦).حسن التوسل : ١٧

(٧).النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٩ / ١٩١

(٨).ينظر:مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني:٣٧

(٩).البداية والنهاية: ١٣ / ٢٠٤

(١٠). ادب العصور المتأخرة : ١٣

(١١). عصر الدول والأمارات : ٦

(١٢). الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري : ١٩٣

(١٣). عصر الدول والإمارات : ١٥٧

(١٤). ينظر : وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان : ٥٦٥/٢ ، تاريخ اداب اللغة العربية : ١٣٩/٢

(١٥). حسن التوسل : ٢٢١

(١٦). نهاية الأرب في فنون الأدب : ١٥٥/٧

(١٧). حسن التوسل : ٣٣٣

(١٨). صبح الأعشى في صناعة الانشا: ٨ /٤٤٨

(١٩). نهاية الأرب في فنون الأدب : ٧ / ١٦٤

(٢٠). شرح نهج البلاغة : ١ / ٤٥ ، وصبح الأعشى : ١٢ / ٢٧٩

(٢١). محاضرات في النثر العربي الحديث : ٩

(٢٢). نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي : ٨٥
(٢٣). حسن التوسل : ٣٨٢
(٢٤). محاضرات في النثر العربي : ٩
(٢٥). حسن التوسل : ٣٩١
(٢٦). اللغة العربية ، قواعد وتدريبات : ١٦٣
(٢٧). أنوار الربيع في أنواع البديع : ٢٣٤/٢
(٢٨). سورة يونس – الآية ٢٢
(٢٩). حسن التوسل : ٣٢٣
(٣٠). المصدر نفسه : ٢٣٤
(٣١). سورة الإسراء – الآية : ٣٣
(٣٢). حسن التوسل : ٣٣٥
(٣٣). سورة إبراهيم – الآية : ١٨
(٣٤). حسن التوسل : ٣٣٧
(٣٥). صبح الأعشى في صناعة الانشا: ١ / ١٤٦
(٣٦). البيان والتبيين : ١٢٣/١
(٣٧). أدب الكاتب : ١٤/١
(٣٨). حسن التوسل : ٢٨٤
(٣٩). الفن ومذاهبه في النثر العربي : ٢٢٨
(٤٠). حسن التوسل : ٢٨٤
(٤١). مقدمة ابن خلدون :ج١٤٠٧/٤
(٤٢). نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري :٢١
(٤٣). أسرار البلاغة : ٨
(٤٤). المصدر نفسه : ٩
(٤٥). البيان والتبيين : ٢٢٤/٣
(٤٦). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢٤٠/١
(٤٧). مقدمة ابن خلدون : ج١٤٠٦/٤
(٤٨). حسن التوسل : ٣٠٨
(٤٩). المصدر نفسه : ٢١٣
(٥٠). صبح الأعشى في صناعة الانشا: ١ / ٢٢٤
(٥١). الخصائص / ١ / ٥٣
(٥٢). تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي : ٢٠

المصادر والمراجع:

(١).القران الكريم
(٢).ادب العصور المتأخرة– ناظم رشيد–كلية الآداب–جامعة الموصل–ط٣– دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٨٧
(٣).أدب الكاتب – ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)– تحقيق – محمد محي الدين عبد الحميد – المكتبة التجارية – مصر – ١٩٦٣
(٤).أسرار البلاغة–عبد القاهر الجرجاني–تحقيق–احمد مصطفى المراغي–ط١–مطبعة الأستقامة – مصر – ١٩٤٨
(٥).أنوار الربيع في أنواع البديع– صدر الدين علي بن معصوم المدني (ت ١١٢٠هـ) – تحقيق – شاكر هادي شاكر – مطبعة النعمان – النجف الأشرف – ١٩٦٩
(٦).البداية والنهاية–تأليف أبي الفدا عماد الدين بن اسماعيل بن كثير الدمشقي(ت٧٧٤هـ)– تحقيق د. احمد أبو ملحم
(٧).البيان والتبيين – ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) – تحقيق – عبد السلام هارون – مكتبة الخانجي – مصر – ١٩٦٠
(٨).تاريخ اداب اللغة العربية – مصطفى الرافعي – مصر

(٩).تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي – شوقي ضيف – دار المعارف – مصر
(١٠). حسن التوسل الى صناعة الترسل – شهاب الدين محمود الحلبي – تحقيق – اكرم عثمان يوسف – دار الرشيد – بغداد – ١٩٨٠
(١١). الحياة الفكرية في العراق في الفرن السابع الهجري–د–محمد مفيد آل ياسين–الدار العربية للطباعة–بغداد–١٩٧٩
(١٢). الخصائص – لأبن جني – تحقيق – محمد علي النجار – القاهرة – ١٣٧١هـ
(١٣). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ،تاليف – شهاب الدين بن حجر العسقلاني المتوفى ٨٥٢هـ ضبطه وصححه الشيخ عبد الوارث محمد علي– ط١– دار الكتب العلمية –بيروت –١٩٩٧
(١٤). شرح نهج البلاغة –لأبي حامد عز الدين هبة الله بن محمد بن أبي الحديد ألمعتزلي (٦٥٦هـ)ضبطه وصححه –محمد بن عبد الكريم النمري –ط٣– دار الكتب العلمية – بيروت –لبنان–٢٠٠٣
(١٥). صبح الأعشى في صناعة الإنشا – احمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١ هـ) – شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين – دار الكتب العلمية – بيروت
(١٦). عصر الدول والأمارات – د.شوقي ضيف – دار المعارف – مصر – ١٩٨٠
(١٧). الفن ومذاهبه في النثر العربي – د.شوقي ضيف – ط٨–دار المعارف – مصر–١٩٧٧
(١٨). فوات الوفيات –محمد بن شاكر ألكتبي –تحقيق د.إحسان عباس –مطبعة دار صادر–بيروت ١٩٧٣
(١٩). في أدب العصور المتأخرة –د.ناظم رشيد – كلية الآداب – جامعة الموصل
(٢٠). اللغة العربية – قواعد تدريبات – د. عبد الله الكيش – ط١– ليبيا– ٢٠٠٤
(٢١). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين بن الأثير – تحقيق – احمد الحوفي – د. بدوي – ط١– مكتبة النهضة –مصر–١٩٦٢
(٢٢). محاضرات فب النثر العربي الحديث–د.حاتم الساعدي–مؤسسة المعارف للمطبوعات–بيروت – ١٩٩٩
(٢٣). مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ،د–بكري شيخ امين مطبعة دار الشرق –بيروت ١٩٧٢
(٢٤). مقدمة ابن خلدون– العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون—تحقيق – د.علي عبد الواحد وافي – ط٢–مطبعة الرسالة – ١٩٦٨
(٢٥). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – تأليف جمال الدين بن تغري بردى – – تحقيق محمد حسن شمس الدين – بيروت – ١٩٩٢
(٢٦). نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي : د. حسين نصار – ط٢–مكتبة النهضة المصرية – ١٩٦٦– مصر
(٢٧). نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري – جدلية الحضور والغياب – د. عبد العزيز شيبل – كلية الآداب والعلوم السياسية – سوسة – ١٩٨٠
(٢٨). نهاية الأرب في فنون الأدب –شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري(٧٣٢هـ)–دار الكتب– مصر
(٢٩). وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان–لابن خلكان– تحقيق – د. إحسان عباس دار صادر بيروت –١٩٧٢

Abstract

Messages of Shahabuddin alhalby (725 AH) a technical study

Shihab-Eldin alhalby is the most prominent writers of his time, he was a writer for the establishment in the Office of the messages, and this is what made him a literary and artistic ability were exploited in the drafting of letters and written messages, which varied between Diwaniyah and the Brotherhood, wrote the contracts and covenants. All of these messages with a technical qualities split between three areas: First: the power of the Holy Quran in clear words and meanings.

Second: the power of text in the impact of traditional poetry, typical of his age, Thirdly: aesthetic that prevailed at that time and that more authors than in their messages

Have tried to clarify this Search to locate properties and its influence in the literary text and the quality of the impact, and your search is over and the results showed that a conclusion reached by.